Kütüphanesi
İslâm Ansiklopedisi

سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

تراثنا

الأصول التاريخية للفرقة الاباضية

تأليف
الدكتور عوض محمد خليفات
الجامعة الأردنية
عمان ــ الأردن

الطبعة الثالثة
ديسمبر ١٩٨٨

الأصول التاريخية للفرقة الأباضية

تأليف الدكتور عوض محمد خليفات
الجامعة الأردنية
عمان ـ الأردن

كانت مشكلة الخلافة أول مسألة اشتد فيها الخلاف بين المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ، وخاصة أنه لم يرد في القرآن الكريم نص صريح يتم بموجبه اختيار رئيس الدولة، كما أن الرسول عليه السلام لم يعين الشخص الذى سيتولى زعامة المسلمين بعده. وهكذا فقد وضعت وفاة الرسول ﷺ الأمة الاسلامية أمام مشكلة خطيرة ألا وهي مشكلة خلافة الرسول ﷺ وقيادة الأمة والاشراف على شؤونها من الناحيتين الدينية والدنيوية. أما الناحية الدينية فقد اكتملت قواعدها ورسخت جذورها، وقد أكد ذلك قول الله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الاسلام ديناً». ألا أن هذا الدين لابد له ممن يحميه ويعمل على إنتشاره في مناطق جديدة لم تصل إليها الدعوة من قبل، وخاصة أن الدين الاسلامي دين عالمي ليس مقصوراً على العرب وحدهم ولا محدوداً بالجزيرة العربية. ومن الناحية الدنيوية لابد للأمة من قائد وزعيم يحافظ على المكتسبات التي أحرزتها الأمة في ظل الاسلام. وبعد مناقشات ـ وأحياناً مجادلات

عنيفة ــ وقي الله الأمة شر الفرقة والنزاع واجتمعت كلمتهم على انتخاب أبى بكر الصديق أول خليفة للمسلمين. وقبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى عهد ــ بعد إستشارة كبار الصحابة الموجودين في المدينة ــ إلى عمر بن الخطاب. وبينما كان عمر بن الخطاب يصارع الموت، بعد أن تلقى طعنات خنجر أبي لؤلؤة الفارسي المسمومة، فكر في أمر الأمة من بعده وأستقر رأيه على أن يجعل أمر الخلافة شورى، وقد حددها في ستة من الصحابة هم علي بن أبي طالب، عثمان بن عفان، طلحة بن عبيد الله، الزبير بن العوام، عبد الرحمن بن عوف وسعد ابن أبي وقاص. وقد بين عمر أسباب اختياره لهؤلاء النفر من الصحابة حينما قال مخاطباً إياهم «إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض... إني لا أخاف اختلاف الناس عليكم إن استقمتم ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيختلف الناس». وبعد مناقشات واستشارات دامت ثلاثة أيام بويع عثمان بالخلافة في ذي الحجة من عام ٢٣ هـ. وفي عهده واجهت الأمة الاسلامية أخطر محنة مرت بها بعد حروب الردة، وهو ما عرف في التاريخ باسم الفتنة.

كانت الفتنة في عهد الخليفة عثمان حدثاً خطيراً ساعد في ازدياد شقة الخلافة بين المسلمين حول منصب

الخلافة. وقد أدت التطورات التي حدثت فيما بعد، وخاصة النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية ابن أبي سفيان، إلى بروز فرقة المحكمة أو الخوارج كما سماها أعداؤها والحرورية أو الشراة كما سموا أنفسهم.

انشقت هذه الجماعة على علي بن أبي طالب عندما أصر على إنفاذ التحكيم، ونادت بإنتخاب خليفة للمسلمين عن طريق الشورى دون إعتبار للنسب القبلي أو الأصل العرقي. وكان المحكمة أول من تحدى سلطة قريش عملياً عندما انتخبوا عبدالله بن وهب الراسبي إماماً لهم ونادوا بقية المسلمين للانضمام إليهم. وبعد معركة النهروان، اعتزل أفراد منهم أصحابهم وتوجهوا صوب البصرة حيث أخذوا يدعون لمذهبهم سراً خوفاً من بطش الولاة الأمويين. وقد تزعم هذا الفريق أبو بلال مرداس ابن أدية التميمي، وكونت هذه الجماعة البذرة التي أنتجت الفرقة الأباضية **أو أهل الدعوة** كما كانوا يسمون أنفسهم.

شهد أبو بلال، زعيم هذه الجماعة المعلن، معركة صفين مع علي بن أبي طالب، وأنكر التحكيم، واشترك في معركة النهروان مع المحكمة ضد علي بن أبي طالب. ويبدو أنه لم يكن مرتاحا لما حدث من خلاف وفتنة بين

المسلمين، وصعق لما حلّ بأقاربه وأقرانه من قتل وتشريد على يد إخوانهم في الدين، ورأى أن القتال بين أتباع العقيدة الاسلامية السمحة بهذه الطريقة الشرسة أمر لايصح، فانسحب مع نفر من أصحابه، وأقام مع أبناء عمومته من قبيلة تميم، الذين كانوا يشكلون جزءاً هاماً من سكان البصرة انذاك. وكان يتزعم هذه القبيلة الأحنف بن قيس السعدى التميمي (ت ٨٧هـ/٦٨٦م) وينتمي إليها عدد وافر من أبرز الشخصيات السياسية والفكرية.

وفي ظل الحماية والترحاب اللذين لقيهما أبو بلال وأصحابه من الأحنف وقبيلته، أخذ مرداس ينشر آراءه وأفكاره مؤثراً طريق الاقناع والمناقشة على الحرب والعنف. وأنكر قتل المخالفين واستعراض الناس على طريقة متطرفي الخوارج. ودعا أتباعه بأن لا يجردوا سلاحاً ولا يقاتلوا أحداً إلا إذا تعرضوا للعدوان وأجبروا على القتال. وبلغ من حسن سيرته أن عدداً من الفرق والجماعات الاسلامية فيما بعد، كالشيعة والمعتزلة، ادعت نسبته إليها واعتبرته واحداً من أبرز أتباعها. وقد نشط مرداس في البصرة لنشر دعوته وأفكاره. وكان يعقد المجالس والمناظرات لاقناع الناس بآرئه فانضمّ إليه عدد كبير من الناس وأخذ عدد أنصاره يزداد ويتعاظم حتى أنهم ابتنوا لهم مسجداً خاصاً في البصرة. ويبدو أن دعوته

لاقت استجابة كبيرة جعلت عبيد الله بن زياد، والي العراق، يقول: «لكلام هؤلاء (مرداس وأتباعه) أسرع إلى القلوب من النار إلى السيراع». وانضم إلى هذه المجموعة الفقيه المعروف جابر بن زيد الأزدى الذى لم يلبث أن أصبح رئيس الجماعة والمؤسس الحقيقي للحركة وانضوى الجميع تحت امرته بما فيهم أبو بلال نفسه ولكن جماعته آثروا أن لا يبيحوا باسمه ولا يعلنوا علاقته بالحركة حتى لايبطش به الولاة.

نتيجة لهذا النجاح الذى أحرزه المحكمة القعدة اتبع والي العراق، عبيد الله ابن زياد، سياسة قاسية تجاههم مما اضطرهم للجوء إلى السرية في نشر دعوتهم. وكانوا يقصدون إجتماعاتهم سراً للدعوة لمذهبهم والنظر فيما يعنيهم ويساعد على تحقيق أهدافهم. ولكن عبيد الله لم يغض الطرف عنهم، وأخضعهم لمراقبة شديدة، وكان يبث العيون والجواسيس لتعقبهم والقبض عليهم وزجهم في السجون. وكانت هذه الاجراءات الشديدة تقض مضاجعهم وتلقي الرعب في قلوبهم، ولذلك فقد كانوا يأتون مجالسهم متنكرين متشبهين بالنساء لدفع الريبة عنهم وهم في طريقهم إلى أماكن اجتماعاتهم، وكانوا أحياناً ينتحلون صفة التجار والباعة المتجولين حتى يصلوا مقصدهم. ولم يكتفى ابن زياد بمطاردتهم والتنكيل بهم بل لجأ إلى أسلوب آخر يرمي إلى زرع

الخلاف وزعزعة الثقة فيما بينهم، آملاً في القضاء عليهم من الداخل نتيجة الانقسام والنزاع، فقد كان يحبس الجماعة منهم ثم يأمرهم بقتل بعضهم بعضا، ومن قتل زميلاً له عفا عنه وأخرجه من السجن. وحاول بأساليب مماثلة أن يزرع الفتنة بين العرب والموالي من القعدة وخاصة أن دعوة أبي بلال قد استهوت عدداً من الموالي الذين كانوا يقطنون البصرة فتبعوه واعتنقوا مبادئه.

نتيجة للاضطهاد الذي تعرض له القعدة في البصرة آثر أبو بلال الشراء وترك المدينة مرتحلاً إلى مكان آخر آملاً في أن يأمن شر ابن زياد وينشر آراءه ومذهبه بحرية أكثر، وفي مناطق لم تصل إليها دعوته من قبل. فسار معه نحو أربعين رجلاً من أتباعه حتى نزلوا آسك، وقد أعلن مرداس بأنه وأصحابه لن يخيفوا أحداً أو يجردوا سيفاً ولا يقاتلوا إلا من بدأهم بالعدوان. وعلى الرغم من ذلك فقد خشي ابن زياد نشاطه وانتشار دعوته فندب إليه الجيوش وأباده وأصحابه في عام ٦١هـ.

وبعد استشهاد أبي بلال بثلاثة أعوام (٦٤هـ) حدث إنقسام نهائي بين المحكمة فمال فريق منهم إلى التطرف بينما حبذ فريق آخر الاعتدال وانتهى هذا الخلاف إلى إنشقاق أبدي برز على أثره جماعة القعدة المعتدلة التي أثرت الهدوء والسير على نهج أبي بلال في

عدم استعراض الناس ومهاجمتهم إلا دفعا لعدوان. وفي بداية الربع الأخير من القرن الأول الهجري إنقسم القعدة إلى فرقتين: الصفرية والاباضية.

سميت الأباضية بهذا الاسم نسبة إلى عبد الله بن أباض الذى تعتبره المصادر غير الأباضية مؤسس المذهب الأباضي. أما العلماء الأباضيون فينسبون إلى عبد الله ابن أباض دوراً ثانوياً بالمقارنة مع جابر بن زيد الأزدى العماني الذى يعتبرونه إمام أهل الدعوة ومؤسس فقههم ومذهبهم. ويجمع المؤرخون والمفكرون الأباضيون على أن عبد الله بن أباض كان يصدر في كل أقواله وأفعاله عن جابر بن زيد.

ويبدو لي أن جابراً كان الامام الروحي وفقيه الاباضية ومفتيهم وكان بالفعل هو الشخص الذي بلور الفكر الأباضي بحيث أصبح متميزاً عن غيره من المذاهب، بينما كان ابن أباض المسؤول عن الدعوة والدعاة في شتى الاقطار ولذلك سمته المصادر رئيس القعدة في البصرة وغيرها من الامصار. وتاريخ الدعوة الاباضية يشير إلى اشتراك بعض الأشخاص البارزين والمجتهدين في المسؤولية إلى جانب الامام الأكبر لهم. وقد حدث مثل ذلك زمن أبي عبيدة مسلم بن أبي